كتاب الرافد

العدد 122 ـ يوليو 2016
يصدر مجاناً مع مجلة الرافد

رَايَاتٌ بِيضٌ

دائرة الثقافة والإعلام - حكومة الشارقة

ص.ب. 5119

هاتف: 5123333 9716+

بــرّاق: 5123303 9716+

www.arrafid.ae

◄ المواد المنشورة تعبر عن كاتبيها ولا تعبر بالضرورة عن رأي دائرة الثقافة والإعلام

◄ وكلاء التــوزيع: دولة الإمارات العربية المتحدة: شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع، دبي: ت: 3916501 /04، قطر: دار الثقافة للطباعة والصحافة والـنشر والتوزيع: ت: 414482 البحرين: دار الهلال للتوزيع ت: 534561 - 05355590، اليمن: دار القلم للنشر والتوزيع والإعلام صنعاء: ت: 272562 - 0272563، المغرب: الشركة العربية الإفريقية للتوزيع والنشر والصحافة «سبريس» الدار البيضاء: ت: 249200، مصر: مؤسسة أخبار اليوم: ت:5782700، سوريا: المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات.

رَايَاتٌ بِيضٌ

مجموعة قصصية

سعيد محمد الحمادي

دائرة الثقافة والإعلام الشارقة

رجل في الظلام

قام من مجلسه، أطل برأسه من النافذة، كان الظلام الدامس يعم كل شيء، فكر.. هذه الليلة حالكة السواد، يبدو أن الليل في منتصفه، والقمر والنجوم مختفية حجبتها السحب السوداء، والعمل الذي بدأت به في النهار يجب إكماله في هذه اللحظة..

ما عليَّ سوى أخذ عصاي المعكوفة فهي من شجرة (الطلح)، استغرقت مني وقتاً طويلاً في انتقائها من جذع الشجرة وكيها فوق النار

حتـــى تتســـاوى حدباتها، لقد دلكتها بالســـمن البلدي حتى صارت تلمع، أصبحت قوية كالحديد. سآخذ معي أيضاً المصباح اليدوي ليضيء لي الطريق. أمســـك عصاه بيـــده اليمنى، والمصباح بيده اليســـرى، خرج من منزلـــه ابتعد عنه كثيراً، رياح الشـــتاء تهب يســـمع هديرها. ســـاورته أفكار، ما الذي جعلنـــي أخرج في هذه الســـاعة المتأخرة من الليل؟ لقد كنت مســـتلقياً في الفراش هادئ البال! كاد النوم يغلبني.. يا لها من هواجس، يمشي سريع الخطى، يرفـــع عصاه قليـــلاً عن الأرض ثم يخفضها حتى يســـمع وقعها، لتكون له أنيســـاً، يده اليسرى قابضة على الكشاف مسلطاً الضوء أمام قدميه.. كان يســـمع تكسير الأحجار تحت قدميه، كان يرتدي معطفاً وجلابية تصل إلى أخمص قدميه. ورغم هبوب الرياح في الشـــتاء فإن الأجواء لم تكن باردة! فقد لطفتها كثرة أشجار السدر المتناثرة على طول الطريق وفي أطراف الحقول، أما الأرض الصالحة للزراعة فقد كانت قاحلة، لأن موســـم الأمطار لم يحن بعـــد، وكذلك شـــحته في هـــذا الفصل من الســـنة. أصبح تفكيره منصبـــاً على الطريق المتعرجة والممتلئـــة بالأحجار المتناثرة، وكثيراً ما كان يتخيل ظل شجرة بأنه إنسان قادم نحوه أو وحش يريـــد الانقضاض عليه، لوّح بعصاه إلى الأعلى، وســـرعان ما

اكتشف أنه أحد الطيور الليلية تطير من شجرة لأخرى.

بدأ يجمع قواه ويثبت خطواته ليكون أكثر مراساً..

كان يتذكر والده عندما كان في أوج قوته وتلك الحادثة التي حصلت له، عندما كان يمشـــي في منتصف الليل والظلام يحيط به، لا يكاد يرى شيئاً.

ولأنه كان متمرســاً على المشـــي ليلاً، وكان يحب ذلك لأن معظم أعماله يقضيها في الظلام.

في تلــك الليلة الحالكــة الظلمة وثب أمامه نمــر ولم ترتعد فرائصه، بل وقف أمامه بشجاعة، ليميز نوعه وما هي الطريقة التي ســيتعامل بها معه. كان يلبس قميصاً أبيض ومعطفاً كاكياً ذا لون رمادي، الخصر معصوب بحزام عريض وسيف معلق من الجهة اليســرى اســتل ذلك الســيف بيده اليمنــى، أخذ يلوح به في الهواء يميناً وشــمالاً كان الســيف لامعاً بحيث تســتطيع رؤيتــه فــي الظلام وســاعده على ظهــوره النجــوم التي بدأت تضيء في الســماء، تقدم النمر ببطء مكشــراً عــن أنيابه، يريد الانقضاض عليه لكن لمعان السيف منعه من التقدم أكثر، فكلما دار حوله اســتدار الرجل نحوه، وهو ممســكٌ سيفه، كان النمر

يتحين الفرصة لأن يفلت السيف من يد الرجل، أو تخور قواه، فيسقط أرضاً، كان يعلم في داخله أن الرجل لا يخشاه، وأنه يريد الفتك به، كانت رائحة الرجل تصل إلى أنفه وبهذه الحالة يستطيع تمييزه، هل هو خائف أم شجاع؟ وهل يريد القتال وعدم الاستسلام، كان الرجل يرى الموت أمامه، فكلما تقدم نحوه النمر ازداد الرجل شجاعة وجرأة للوثوب عليه، سنحت الفرصة للرجل ورفع صوته ليصل للمنازل القريبة لإنقاذه، وقد هبّ رجال كثيرون نحوه، وما إن رآهم النمر حتى ولّى. تذكر تلك الحادثة لأبيه وأصبح أكثر مراساً، رفع رأسه لأعلى وتقدم بخطوات قوية، رفع صوته بالغناء، لم يكن يحفظ كلمات الأغاني وإنما يخرج نبرات صوته بتناسق مع تلك الكلمات التي يتذكرها، عقله الباطن لم يتح له نطقها، شيء ما كان رابضاً فوق الشجرة، رفرف بجناحيه بقوة، اهتزت الأغصان، انحنى نحو الأرض التقط حجراً، قذف به نحو الأغصان تحركت معظم فروع الشجرة فزعت عدة طيور وطارت وحطت مرة أخرى، تحرك إلى الأمام بخطوات ثابتة، سمع وقع أقدام في الخلف قال: لا بد أن يكون حيواناً مفترساً جاء في هذه الساعة المتأخرة، إذاً لا بد من الحيطة والحذر، اندفع إلى الأمام بأقصى

ســرعة، صعد فوق أقرب شــجرة، كان القادم له رأس دائري، وشــعر كثيف من رأسه حتى رقبته، العيون سوداء براقة داكنة كانت يداه الأماميتــان مرتفعتين قليلاً عن قدميه الخلفيتين، كان له ذيل بطول خمســين ســنتيمتراً ويمتلك مخالب قوية في يديه، أحس بالرجل عندما صعد إلى الشجرة فاندفع نحوه بلمح البصر دار حول الشجرة دورتين، ثم انطلق بسرعة قصوى، ثم عاود، حــاول الصعود لم يسعفه ثقل جســمه وعضلاتــه القوية على التسلق للشــجرة، حيث هي مرتفعة بجذورها عن الأرض زأر بأعلى صوته، كاد الرجل أن يسقط من الخوف، دار حولها كان الرجــل ممســكاً بأحد الفروع بقوة، تشــنجت أعصاب يديه كان قلبه يخفق بشدة، فكر لو أنه ظل على هذه الحالة لانهارت قواه، ولســقط أمام الأســد، كان الشــال مربوطاً حول خصره، بفرع الشجرة بحيث تساعده على عدم السقوط.

هدأت نفســه قليلاً، لكن الأسد كان مصرّاً على عدم مبارحة المكان، فكان يحفر بمخالب يديه حول الشجرة، زأر مراراً دون جــدوى، لاح الشــفق في الأفق، أدرك أنه لــو بقي مدة أكثر في هذا المكان ســوف يُمسَك به، غادر المكان، بينما كان الرجل قد فارق الحياة.

الموعد

أخــذت تتأمــل جــدران غرفتهــا، شــعرت بالضيــق، ثيــاب مبعثــرة فوق الســرير وعلى الأرفــف، نظــرت نحــو الــدولاب ذي الأربع فتحــات، ظهــرت صورتها في المــرآة، كانت صورة جميلة ذات أنف مدبب، وشفايف بارزة، وعيون دائرية ســوداء وبشــرة برونزية، شعر أســود ســلس بدأت تتحســر لماذا لم أتزوج إلى الآن؟ أين فارس الأحلام لقد رفضت الكثير من الذين تقدمــوا لي؟ لماذا فعلــت ذلك؟ هل كانت

دراستي تملأ عليّ الفراغ أم هو الغرور؟ بالأمس مررت بجوار شـركة م. ي بميدان التحرير لمحت موظف الاسـتعلامات من خلـف الزجاج، ولا أدري كيف وقعت عيني عليه، كان ذا وجه عريـض، عيون زرقاء، خدود متوردة سـألقي نظرة على تلك اللافتة، لآخذ رقم الشركة.

لبسـت عباءتهـا وضعت اللثمـة على وجههـا خرجت من المنزل.

اقتربـت نحو اللافتـة، أخذت رقم الشـركة، ألقت بنظراتها على الموظف.. كان في مكانه فوق كرسـيه لا يرى منه سـوى الوجه.

عادت لبيتها، ضغطت على أرقام الهاتف، سمعت صوتاً:

– ألو... مساء الخير.

كانـت قلقة متوترة الأعصاب، نبضـات قلبها تتصاعد، لم تستطع الرد، كرر هو:

– مرحباً. من المتحدث؟

أخرجت نيران صوتها بعذوبة:

– ألو... معذرة، هل تبيعون مساحيق التجميل؟

– «نعم سيدتي! هل من خدمة نقدمها لك؟»‏.

– أجل، صديقتي لديها محل تجميل وتود شـراء مجموعة من مساحيق التجميل.

– نحـن في خدمتـك وفي خدمتها. وتسـتطيع في أي وقت المرور علينا ونحن سنعمل لها تخفيضاً خاصاً من أجلك.

– شكراً. هذا لطف منكم.

– إنهـا عملنا. شـركتنا تقـدر زبائنها المميزيـن. لكن هل أستطيع معرفة اسمك؟

– لماذا؟!

– لا نلتقي كثيراً بزبائن بمثل لطفكم.

– شكراً لك.

أغلقـت سـماعة الهاتف والابتسـامة تعلو شـفتيها، الخدان توردا بالحمرة، كانت أحلامها وردية، شـعرت بأنوثتها وبقدوم فارس أحلامها عبر سـماعة الهاتف ذلك الوجه الذي رأته عبر

الزجــاج ولكن.. أيكون هو؟ مؤكد لأن ســماعة الهاتف كانت لا تفارقه.

وضع الموظف الســماعة، وهو يتخيلها فتاة ممشوقة القوام من نبرات الصوت تخيل أنها جميلة، ذات بشرة بيضاء وخدود وردية وعينين عســليتين واســعتين أو زرقاوين، الشعر طويل ســلس آه ما أجمل ذلــك الصوت، لا بــد أن ألاقيها في أحلامي الليلة، ســوف نطوف العالم ســأقطف أجمل الــورود لها. مجال العمل في ساحات التجميل يجعل المرء سعيداً. فكر قليلاً «لا بد من محاولة الاتصال بها». رنّ هاتفها، أمسكت السماعة. قال: «آســف على الإزعاج! ولكني أحببت ســماع صوتك والتحدث معك أكثــر حتى نلتقي ولو لمرة واحــد وبإمكانك المرور على الشــركة للاطلاع على الموديلات الجديدة التي وصلت مؤخراً للشــركة. « فردت: « تريد أن نلتقي في مقر عملك». «إذا كان هذا لا يزعجك، ويفضل حضورك الساعة العاشرة صباحاً».

رنّ المنبه عند السادســة صباحاً، اســتيقظت، أخرجت من دولابها أفضل بدلة لديهــا وضعتها جانباً واتجهت نحو المطبخ وضعــت الجمــر على النــار حتى احمــرت التقطتهــا بمقبض

وضعتها على المجمرة المصنوعة من الفخار، انتقت أحسن البخور العدني وضعته فوق الجمر، تصاعد دخان كثيف ذو رائحة عطرة، فاحت رائحته في الغرف المجاورة، تغلغل الدخان في تفاصيل جسمها وملابسها، موعد اللقاء اقترب. لبست عباءتها السوداء وضعت الخمار على وجهها، طوت رأسها بردفة سوداء، علقت حقيبتها على كتفها الأيسر واتجهت نحو الشركة، دلفت إلى الداخل، تقدمت نحو مسؤول الاستعلامات كان كما رأته أنيق المظهر ذا عينين زرقاوين، وجه عريض، استدار نحوها، نزل من الكرسي استقام أمامها كان طوله لا يتجاوز المتر، نظرت إليه بذهول لم تستوعب الموقف، خارت قواها، وقعت مغشياً عليها.

***

الاعتذار

ينـــام نهـــاراً ويصحو ليلاً؛ هــذه عادته التي سـئم منها أولاده وزوجته وجيرانـــه. الليل خيّم علـــى الأجواء، هجع الناس في بيوتهم، وبدأ هو في الانتعاش لوجود الظـــلام، يخرج من منزله يتمشـــى فـــي الطرقات وسـط الظـــلام الكثيف، يتصبـــب عرقاً يعـــود لمنزله، يـــدق الباب بقوة بقدمـــه اليمنى، تفتح له زوجته مفزوعة، بعد أن كان النوم قد غلبها. سألها: أين الأولاد؟

– لقد ناموا!

– والبنات؟

– نمن أيضاً!!

يزم شـفتيه يصعد إلـى غرفته في الطابق الأعلى، ممسـكاً بقنينـة زجاجيـة مـن نوع فرنسـي، يصب في الكـوب يمتلئ، يتجرعـه دون تعديلـه بالماء؛ يشـعر بالحيوية ينـادي زوجته بالاقتـراب منـه أنت مليكتي وأفضل زوجـة، لقد صبرت على المتاعب بابتعادي عنكم في بلد الغربة.

ربيتِ أولادي أفضل تربية علّمتِهم أدخلتِهم أحسن الجامعات، أرى أحدهم سـيتخرج من كلية الطب، والآخر مهندس، وابنتي الكبيرة سنة ثالثة لغات، ما أجمل هذا وما أجملك.

تبتسـم وقد لبست أفخر الثياب وضعت أحمر الشفاه، مسدت وجههـا بالبودرة، رائحـة العطور تفوح منهـا، دخان المبخرة تتصاعد منه رائحة زكية. يمسك الشريط بيده، يضعه في حقيبة المسجلة يستمع بنشوة للأغاني التراثية.

يقـوم من مكانه، يبدأ بالرقص علـى الإيقاع، ينهكه التعب، يعود لمجلسه، يأخذ أنفاسه، يرتشف كوباً آخر دفعة واحدة.

تخبره زوجته بأن يتوقف عن الشرب:

– ألم يؤلمك كثرة الشراب؟! ويضر معدتك وكليتيك! حيث تم إسعافك في الليلة السابقة إلى المشفى؟!

– هذا كلام جميل فلن أتعاطاه غداً.

الليل ينتصف وقد أجهز على قنينة الشـمبانيا. جفون زوجته تتراخى من السهر، جميع أعضائها مرهقة من معاناة النهار من طبخ وكنس ومتابعــة الأولاد والبنات في المدارس والجامعات تتحامل على نفســها، حتى لا يحس زوجهــا بخوار قواها وأنها غير قادرة على مجاراته فيبحث عن أخرى.

كوب متبقٍّ أمامه أفرغه فى جوفه، احمرت عيناه، وانتفخت أوداجه، يظهر عليه أثر الشراب، عاد بأفكاره إلى الوراء.

تذكر ما كان يدور بينهما من حوار وسوء تفاهم أحياناً.

أخذ يعنفها:

– تخرجين دون علمي، وتبيعين ممتلكاتي أنا على علم بما يــدور في هذا المنزل. أين الذهــب الذي أهديتك إياه؟ تخبره أنه محفوظ في مكان آمن.

– لا هذا لا ينطلي عليّ، أنا أعلم أنك قد بعته!! أين الأولاد؟

– لقد ناموا!

– ألا يعلمـون بأنـي متواجد في المنزل اذهبـي وأيقظيهم جميعاً.

– لديهم مدارس.

– أنا أهم من كل شيْ.

تسرب الخوف لجسدها، يقوم من مكانه غاضباً، يعلو صوته بالصياح، يركل بقدمه الباب، يفزع أولاده، يبعد أزرار القميص يزيحه عن جسـده، يتقـدم ابنه الأكبر لتهدئته، يمسـك بحنجرة ابنـه يكاد يخنقه، تحاول زوجته إبعـاده، يرخي يديه، يظل ابنه متسمراً عند الحائط.

تبتعـد زوجته متجهه للخارج، يحوم في ممر المنزل، يتفوه بكلمـات لا تفهـم، يتفقد بقية الغـرف، ينظر إليه أبنـاؤه جميعاً بذهول.

يتجـه نحـو الحمام، يفتح الدش فوق رأسـه، يغتسـل تهدأ أعصابه، يعود لوعيه، ينشـف جسمه، يخرج من الحمام مطأطأ الرأس شاعراً بالندم.

يقبّل ابنــه الأكبر، يحتضنه والدموع تنهمر على خديه، يعد جميــع أولاده وزوجته بــأن ما حدث لن يتكــرر يدخل مخدعه ينام، يصحو آخر النهار ويأتي المساء، يتكرر نفس مشهد الليلة السابقة.

* * *

مكان مجهول

أقبل المســاء وخيّـم على المدينــة، النجوم المعلقــة في الســماء تكشــف ســتار الليل، هو قابع في غرفته تلك التي مســاحتها ثلاثة أمتار، يوجــد فيها ســرير واحــد، كان يحــب افتراش الأرض فــوق الإســفنج، أمامــه رســومات ومخططات، يمســك باليــد اليمنى قلم رصاص لتحبيــر اللوحــات، وبالأخــرى يمســك بحبــة الســيجارة وقد امتلأت الغرفــة بالدخان، بجانبه كــوب نصفه مملوء بشــراب الفودكا يرتشــف

منه، ثـم يعود لإكمال مخططاته، كان عملـه دقيقاً فهو مهندس بارع اسـتطاع التفوق على جميع مهندسـي الشركة التي يعمل بهـا، حتى رؤسـاؤه أوكلوا إليه جميع الأعمال الهندسـية، كان زملاؤه يحسـدونه على ذلك، يرقبـون أي خطأ يقع منه أو نقطة ضعف ليدخلوا من خلالها لأعماقه. كانوا يريدونه أن يتماشـى معهم في تغيير مسـار الرسـومات والإنقاص فـي كمية المواد ليسـتفيدوا منهـا، كان يرفض تلك الأفـكار ويراها خارجة عن القانـون، وأنها لا تخدم سـوى مصالحهم، كانوا يحبون التزلف لرؤسائهم والخضوع لتوجيهاتهم دون معارضة. كان يبتعد عن ذلـك ويراها إذلالاً ومهانة، المهم لديـه إنجاز عمله على أكمل وجه، فقد تعلم في تلك البلاد البعيدة على مبادئ وأفكار لا يمكنه الحياد عنها.

فقـد أمـه صغيراً، عاش فـي كنف أبيه، ومن ثـم تربى في مدرسة داخلية وتلقى تعليمه فيها، كان من أذكى الطلاب استقطبه تنظيم سياسي، حتى أكمل تعليمه الثانوي، وساعدوه على السفر لتلـك الدولة التي كانت تؤمن بأهداف وأفكار معينة، حتى الفرد إذا دخل معهم لا يمكنه الخروج فهم يعبئونه بالمبادئ والأفكار، حتـى تصبح جزءاً من تفكيره. نصحـه بعض زملائه بالابتعاد

عن هـذا التنظيم، فهـم يحترمونه لعمله، ولكنهـم لايريدون له الانخـراط في ذلك، قالـوا له: نحن نسـتطيع تحمّل طباعك في العمل، والخطوات التي تحمّلنا إياها، ولكننا لا نريدك أن تكون معهم، أنت تعلم أن قانون الشـركة لا يجيز التنظيمات السرية، كانـت تلـك النصائح بأسـلوب غير مباشـر، كان قصير القامة أسـمر البشـرة شـعره أجعد قليلاً، خطوط سـوداء حول عينيه لا يهتـم بمظهره كثيـراً، يلبس قميصاً وبنطالاً، جميع ملابسـه لا تتجـاوز ثـلاث بدلات، كان يهتـم كثيراً بعمله، يسـهر الليل بطولـه يراجع فيها أعمال النهار، يكمل رسـوماته الهندسـية، يخطط لمشـاريع جديدة، تفيد الشـركة، يضع الدراسات الأولية لأي مشـروع جديـد، يضـع التكلفة النهائية له لا أحد يسـتطيع إنجاز ما يقوم به ولا أحد يعترض على مخططاته وتكاليف هذه المشاريع، يقبع في تلك الغرفة، السيجارة لا تفارق يده اليسرى، منفضة السـجائر تمتلئ بالرماد، كان لا يتأثر بزيادة الشـراب. تطغـى عليه العاطفـة، يتذكر زوجته (نتاشـا) والتي تركها مع طفليـه، فقـد أعجبت به لذكائـه وكونه من أشـطر الطلاب في الفصـل الجامعي، كما أنه يجيد التعامل مع الجنس اللطيف، فقد جذب أغلب بنات الفصل واستطاع أن يقيم معهن علاقات ودية

إلا (نتاشـــا) كانـــت أكثر حدة فـــي الذكاء، فقد جعلتـــه يتزوجها، كان يتذكرها يمسك بالألبوم يخرج صورها ليرى أفراد أسرته، كانـــت جميلة طويلة القامة ممتلئة الجســـم، عيون زرقاء ووجه مـــدوّر أبيض، كانت مـــن أذكى الطالبات ممـــا جعله يعجبُ بها أكثر، كما أنها من أعضاء التنظيم، ولها مكانة فيه، كانت تهديه الكتب وتســـاعده على فهـــم النظريات للأعضـــاء الكبار، حتى أصبـــح من الشـــخصيات المهمة لدى التنظيم فقـــد ادخلوه أقوى الجامعـــات علماً؛ وســـاعدوه على تخطي ظروفـــه الاقتصادية، ولكـــن ليس بالشـــكل الترفيهـــي، يتصفح صورها كلها، يشـــعر بالاعتزاز بها أمام أفراد أسرته يريهم إياها حتى وإن تكرر ذلك مـــراراً، يرونها جميلة وذكية كما يروي هو عنها، يتحســـرون عليهـــا، لماذا لـــم يحضرهـــا معه؟وأنهم مســـتعدون لاحتضانها بينهـــم، يخبرهم أنه لا يريد أن يكونا عبئاً عليهم، يريد مســـتواه الاقتصادي يتحســـن ومن ثم ســـيذهب لإحضارها ويستقلان في عش الزوجية.

تزداد عاطفته نحوها، يتناول الشـــراب بكثرة، يبقى تفكيره على ما هو عليه لا يغيره تناول أكواب الفودكا.

الليـــل ينتصف ولا تـــزال معدته فارغة مـــن الطعام، فهو لا

يأبــه للأكل، يتناول قرص خبز مع الفلفل الحار المخلوط بالجبن ومن ثم تكــون معدته امتلأت، ينام في ســاعة متأخرة، يصحو باكراً حاملاً لوحاته ورســوماته. يذهب إلى الشــركة وقد أنجز جميع الأعمــال والتصميمات المطلوبــة، لا أحد يعترض على أعماله تتم الموافقة عليها دون قيد أو شرط، تنفذ الأعمال، تزداد شهرته في الصعود.

يعول عليه التنظيم في أمور كثيرة فكلما اجتمعوا يكون أول المدعوين، وأول ما يبلغ بكلمة السر.

كانــت الاجتماعات تتم بطرق ســرية ظناً منــه عدم معرفة رؤسائه بذلك، فهم يرقبونه دون أن يعلم.

زمــلاؤه يعدونه من أفضل المنظّرين داخل التنظيم، ولكنهم يستغلون ذكاءه لمصالحهم الشخصية وإن أدى إلى الإمساك به، كانت محاضرهم محفوظة لديه.

زادت التحذيــرات لــه من زملائــه، أصبح يشــك بكل من حوله، حتى من أفراد أسرته، لم يعد يثق بهم، يغلق غرفته تلك، يظل منهمكاً فوق رسوماته، يشعل سجائره.

يأتــي أحد أصدقائه في التنظيم، يفتح له الباب، يناوله حقيبة

ويذهب. حراس الشركة يرقبونه من الخارج حتى تأتي الفرصة المواتيــة بعد منتصف الليل، يتم الهجــوم على المنزل، تصادر الحقيبة وما فيها، يقتادونه إلى مكانٍ مجهول.

* * *

شاطئ النملة

الأمــواج تتدافــع نحو الشــاطئ مكونة زبد البحــر برغائــه الأبيــض، الرمــال تتطاير من هبوب الرياح، مياه البحر تدعك الرمال، تجعلها مســطحة، تحولها إلى اللون البنــي، أبو مقص تتقاذفه الأمواج نحو الشــاطئ، يمشــي بأقدامه الأربــع، يعود مرة أخرى نحــو المياه. هو يعلم أنه لو بقي على الشاطئ مدة طويلة لمات، لا بد لــه من العــودة وإن كلفه جهداً مريــراً. الطيور تحلق فوق المياه بحثاً عن أسماك صغيرة، كنت

متكئاً على يدي اليسـرى أتأمل البحر الواسـع، وكيف استطاع الإنســان أن يقتحمـه ويغـوص فـي أعماقـه ويكتشـف خباياه ويصطاد الأسماك الصغيرة والكبيرة، ويتصارع معها، ليقتات لحومها؟ كيف اسـتطاع الإنســان أن يبدع على شواطئ البحار وأن يصنع السفن العملاقة ليعبر بها البحار؟

كان يشـدني إليه للدخـول إلى أعماقه واكتشــاف ما يخبئه. كنت أتأمل على سطحه الأمواج تتدافع بعضها وراء الأ خرى، أسـماك تقفز وتغطس، الطيور محلقة. أشـم نسيم البحر جسمي ينتعش، أشعر بالغبطة والسرور، أسمع حفيف أوراق الأشجار.

الرمال الهادئة تلفح وجهي، الأمواج تصطدم فوق الصخور المتراكمة على الشــاطئ أسـمع خشخشة تأتي من بين الأشجار الكثيفـة لعلها سـحلية صغيرة تريـد الدخول للاسـتحمام على الشاطئ.

تحت تلك الشـجرة الخضراء، أتنسم عبير الأشجار ورائحة زبد البحر، كانت أغصان الأشـجار تهتز من هبة النسيم، النمل الأسـود يغوص بين الحشــائش، نملة صغيرة تمشي بخطوات سريعة بأرجلها الست فوق الحشائش، توقفت قليلاً مشت سريعاً

غاصــت بينه، صعدت مــرة أخرى عليه، تســلقت فوق حجر، التقــت بنملــة أخرى، تصادمتــا، جرى العــراك بينهما وانتهى مضت كل واحدة بعيداً عن الأخرى، غاصت النملة بين أوراق الأشــجار اليابســة، خطواتها لم تتعثر، تصعد فوق ورقة تنزل منها، تصعد للأخرى، وجدت جذع شــجرة صعدت عليه بنفس الوتيــرة، اصطدمت بنملة صغيرة. تلامســتا قليلاً، ثم واصلت سيرها إلى أعلى الشجرة، اصطدمت بغصن، فاستدارت عائدة للأســفل. قابلتها فجوة في جذع الشجرة فغيرت مسارها وعادت للصعود لأعلى الشجرة بهمة عالية، انتقلت إلى أحد الأغصان. وتوقفت علــى أعلى زهرة في الغصن. فجاءت ريح أســقطتها إلى الأرض، غاصت بين الحشــائش والأوراق اليابسة، مجدداً عادت للصعود على جذع الشجرة فأسقطتها الريح.

فجأة بين الأشجار، يســمع صوت تكسير الأوراق اليابسة، شــيء ما يسحبها للخلف، كان الشاطئ رملاً أصفر، عليه ركام صــدف وطحالــب كانت الســرطانات تتقافز فــي حفرها داخل الرمل، بينما كان جراد البحر يندفع في الركام والرمل.

الفرحة تملأ مهجتي، الخشخشة مستمرة، سمعي وجوانحي مصغية، لم ألتفت للوراء، عيوني محدقة لتلك الأمواج المتدافعة،

أحسست بشيء يصعد فوق ردفي، ثم التف حول رقبتي، العرقُ يتصبـب من جبيني، قبضت بأصابعي على الرمال، اعتصرتها كما يفعل، كنت أحس بأن عظامي تكسـرت من شـدة العصر، لقد تمكن من الالتفاف حول جسمي بهذا الحجم في هذا المكان، كانت له حلقات قوية ومشـدودة، كان يطلق فحيحاً يشـبه شهيق وزفيـر الإنسـان الذي يبـذل جهداً كبيـراً، ظللت متسـمراً في مكاني، رأسـه فـوق جبهتي، يترقب أبسـط حركة مني لينقض عليّ، يبدو أنه كان يستمتع بعصر جسمي!

سـرحت بخيالي، عندمـا ظهر ثعبان لأحـد الأصدقاء كان مفزوعـاً يتلوى يميناً وشـمالاً، حيث طوى الثعبان نفسـه على جميع أنحاء جسـم صديقي واعتصره، كان الثعبان يتمتع عندما يسمع العظام تتكسـر، ولم يستطع فكاكه كل الحاضرين، تلوت بشـفتيّ آية الكرسـي ثم سـورة الإخلاص، ثم سـورة الفلق، ثم الناس، بدأ يتراخى عن تلك الربطة القوية التي قيد بها جسـمي، سحب رأسه عن جبهتي، حرك جسمه للأمام والخلف، صحوت من نومي فزعاً.

* * *

الميكانيكي

باكراً قبــل الموظفين يذهب إلى عمله يلبس (الوزة) الزرقاء الداكنــة الخاصة بالميكانيكي، كان فخــوراً بهــا ويعدّهــا من أجمــل البدلات، يقارنها ببدلات كبار الموظفين، يســتعملها لأي عمــل يتم تكليفه فــإذا تعطلت ســيارة أو إحدى المعدات الثقيلة فإنه يتوجه إليها ويقوم بالكشــف عــن الأعطــال ويمســك بالورقة والقلــم يكتب تقريراً مفصلاً بقطع الغيار اللازم شراؤها.

يشترط أن تكون من النوع الخاص بالوكالة

الأصلية فإذا لم يتمكن الســائق من ذلــك يقول له: لا بأس المهم أحضر قطع الغيار وسأقوم بتركيبها.

يداعبه بعض السائقين بكلمات نابية يفغر فمه وتبرز أسنانه العليا من بين شفتيه، يطأطئ رأسه مسروراً. يستمر بعملية الفك والتركيب مهما كلفه ذلك من جهد أو وقت حتى بعد انتهاء الدوام الرسمي، أهم شيء عنده أن تعود الآلة المعطلة إلى عملها! وإن كان بعض السائقين لا يثقون بإصلاحاته إلا أنهم يرضخون لما يقــوم به، أحياناً يرفع بتقاريره إلى الإدارة بالأعطال التي توجد في الســيارات والمعدات الثقيلة، وأن هذه القطع ليست موجودة في المخازن ويجب شــراؤها، يُقــرأ تقريره ويرونها مكلفة فيتم الرفــض، يتحدث بثقة عالية بأنه قام بواجبه على أكمل وجه، ثم يذهب إلى السائق ويقول له: اذهب وراجع الإدارة في موضوع إصلاح سيارتك بغض النظر عن تقريري.

فيــرد الســائق: هــذا بســببك أريــد ســيارتي جاهــزة. يرد الميكانيكي: أنا لا توجد لديّ قدرة على التأخير، وأنتم على علم من أين تتم العراقيل؟!

ثم يعود إلى الورشــة، يمكث قليلاً، يحدث نفسه قائلاً: السيارة

معطلــة ولديها أعمال مهمــة، وإذا لم يتم تجهيزها بأســرع وقت سأتحمل مسؤولية تعطلها، إذاً لا بد أن أعود لمراجعة الإدارة فإذا تم الرفض ثانيةً ســوف أجلب تقريري وأقدمــه إلى المدير العام، فهو يتفهم الأمور جيداً، أما السائق فإنه يريدني أن أتحمل مسؤولية التأخير، يبدو أنه يهوى اللف والدوران (خبزي وعجيني).

يدلف إلى مكتب المدير العام، يشــرح له أن ســيارة السائق (م) متعطلــة وأنهم بحاجة إليهــا لمصلحة العمل، يتحدث بلهجة الواثق من نفســه، ينظر إليه المدير فيكتــب للمختص بالموافقة على شــراء قطع الغيار، يتم إحضارها، يتوجه إلى الورشة مع أحد الميكانيكيين يبدآن بعملية فك البراغي حتى يصلا إلى مكان العطل، يتم إصلاح الخلل.

في اليوم التالي يتم استدعاؤه لإصلاح إحدى المعدات الثقيلة البعيدة عن مقر عمله.

كانت الســحب الرمادية الداكنة التي تتخللها ســحب سوداء حجبت أشــعة الشــمس عن الظهور فانتشــر الظلال على وجه الأرض المنبســطة، فــي الأماكن البعيدة والجبــال التي يغطيها غبار كثيف تحجبها عن الرؤية.

كان المارة قليلين وكذلك السـيارات، كان ممسـكاً بتليفونه السـيار يسـتمع، لإحدى أغاني مايكل جاكسـون، لـم يكن يعي الكلمات، لكنه يستمتع بالموسيقى الصاخبة، كان نحيل الجسم ذا شعر كثيف أسود ووجه مسطح وأسنان بارزة في الفك العلوي، على الرغم من أنه قد تعدى منتصف العقد الخامس، إلا أن شعر رأسـه لا يزال كثيفاً وأسـود لا أثر فيه للشـعر الأبيض، كان لا يفكـر في الزواج ولا يعبأ بالنسـاء يقولـون إنه تزوج ذات مرة لكن زوجته لم تبق معه سوى شهرين.

عندما يسـألونه عن سـبب ذلـك يطأطئ رأسـه، يرفع يده اليسـرى بالشـتيمة بنت الذين..... لم تكن جميلـة، كانت كثيرة الشـكوى، لم أرغب بـأن أربط مصيري بمصيرهـا، فقلت لها التحقي بأهلك، عندما يسـألونه ألن تتزوج؟ يعود للسب وأنه لن يتزوج مرة أخرى.

فـإذا ما اقتربت منه امرأة حـدّق بها وأبدى إعجابه بها وبدأ بوصـف ذلك القوام الجميل والبياض الرائع والعيون السـوداء أو العسلية.

اقترب من المعدّة الثقيلة وجد أنها بحاجة إلى إصلاح عمود تدويـر المحـول الخلفي (الصبـرة)، حـاول إخراجها من جهة

اليسار، لكنها كانت متصلبة ففكر بأنها بحاجة إلى لحام لكي يتم سحبها من الداخل، تم تلحيم رأسها من الخارج بسيخين، أوكل إلى مساعده بعمل اللازم ريثما يأتي بالقطعة الجديدة من محل بيع قطع الغيار الذي يبعد عدة أميال.

المساء يأتي بردائه الأسود، المنازل تبعد عن المكان، الفصل صيفاً، الرياح تأتي جافة باردة، كان يشعر بالقشعريرة والبرودة تسري في جسده، الوقت يقارب منتصف الليل وهو يصر على إتمام العمل حتى لا يقال إنه أهمل، حتى يثبت للآخرين أنه مهندس من الدرجة الأولى، عندما تم إنجاز العمل ابتسم وأدرك أنه قام بعمل جيد وأن مساعده الميكانيكي لا يفهم شيئاً. ولولاه لما صلحت هذه المعدّة الثقيلة.

يمازحه السائق قائلاً: ما أدراك بعلم الهندسة؟

فيجيب: تريد الحقيقة: أنتم لا أحد يعمل معكم معروفاً فأنا أقوم بالإصلاح منذ الصباح الباكر.

يطأطئ رأسه، يرفع يده اليمنى قائلاً: تباً لك سوف أتركك هنا، يصعد على سيارة أجرة عائداً إلى منزله، في يوم آخر يعود لإصلاح نفس المعدّة الثقيلة.

الشهيد

رنّ جـرس المدرســة معلنــاً انتهــاء اليوم الدراســي، خــرج التلاميــذ مندفعيــن باتجــاه الخارج، كان ياسر ذو الثلاثة عشر ربيعاً يحمل حقيبتــه على ظهره متجهــاً صوب منزله برفقة مجموعة من أصدقائه، كانت الأجواء بالنســبة لهم مناســبة للوقوف في تلك الســاحة، وضعوا حقائبهــم جانباً والبدء بلعب كــرة القدم، أقدامهم تتقاذفها، صياحهم يعلو لأن كل واحد منهم يريد أن يســيطر عليها أكثر، لم يسمعوا صوت هدير

تلـك الدبابات المتجهــة نحوهم، تفاجأوا بهــا وهي على مرمى حجر منهم، تفرقوا من الســاحة، ثم تركــوا كرتهم ملقاة، مرت فوقهــا الجنازيــر الحديدية، أخفتها من الوجــود، انتابهم الحزن لضيــاع لعبتهــم نظــروا إلــى المجنزرة التــي أفســدت لعبتهم وأضاعت عليهم فرحتهم كانت تحمل جنوداً إسرائيليين.

كانــت حقائبهم لا تزال ملقاة جانباً وبداخلها كتبهم ودفاترهم المدرســية، اندفعــوا بــكل حماس مــع من تجمع مــن الآخرين لالتقــاط الحجارة وقــذف تلك الدبابات، كانــت الحجارة ترتطم فوق الحديد ويســمع دويّها كالرصاص. أما الجندي القابع على قمــة المجنزرة والذي كان يمســك برشــاش، فقــد أصابه حجر في رأســه تألم كثيراً رغم الخوذة التي كان يرتديها، أخذ يطلق الرصاص بشــكل عشــوائي على الجماهير حتــى تفرقت، لكن ياســر وقف صامــداً مندفعاً من جهة لأخــرى باحثاً عن أحجار ليقــذف بها تلك الدبابة التي تنطلق منها الرصاصات، كان يريد الصعــود فوقها! ولكبر حجمها لم يســتطع ذلك، لكنه ظل يلتقط الأحجار ويقذف بها حتى أصابت جندياً آخر على وجهه، كانت الدماء تتقاطر على وجنته، تلفت يميناً وشمالاً، لم ير أحداً. بينما الحجارة تهلّ من كل الاتجاهات، خرج من مكمنه أطل برأســه

نحو الأسـفل، كان ياسر لا يزال يمسك بالحجر متحيناً الفرصة لقـذف الجنـدي وبلمح البصـر أخرج الجندي مسدســه، ضغط على الزناد أصابت الرصاصة ياسـر في صدره، سقط أرضاً، ابتعـدت الدبابة عن موقع الحادثة، تجمـع أصدقاؤه والآخرون لإسـعافه، كان ينزف بغزارة كان ينادي أين أنت يا أمي، أقبلت أمه نحوه احتضنته ودموعها تذرف بغزارة، قال لها: لا تخافي يا أمي سألحق بوالدي وبالقسام وبكل الشهداء.

* * *

البراءة

الأم تدعــك العجيــن فــوق منضدة خشــبية على شــكل دوائــر، ليوضع بيــن الزيت الحار علــى النار، الأدخنة تتصاعــد، تمر من الفوهة الصغيــرة بين الأخشــاب مكونة ســحباً رمادية صغيرة فوق المنزل.

تنــادي ابنها ذا الأحد عشــر ربيعــاً ليتناول الإفطار. يقوم على عجل، يمســح وجهه بالماء، يشــرب الحليب يــأكل الخبز المقلــي، يتجه إلى أســفل المنزل، حيث ثلاثة من كباشــه مربوطة

من أرجلهن. يبعد الربــاط يخرج معها متقافزين بفرح، يداعب كبشــه الأكبــر ذا اللــون الأبيض على رأســه رقطــة حمراء، يشــير إليه بيده، يتقدم نحوه لينطحه ببــطء، يقتادها وراءه نحو المرعــى. تأكل الحشــائش بنهم، قطرات النــدى لا تزال عالقة على الحشــائش، الشــمس تشــرق بنضارة فوق الجبــال، يتكئ تحــت ظل شــجرة، تحوم حوله الماشــية وهي تلهــث من أكلها للحشــائش وارتفاع حرارة الشــمس، يســرح بأحلامه للسباحة تحــت الشــلال البعيد، ينتابــه الحماس، يقتاد أغنامــه عائداً إلى البيــت، يعيد لها تلك الربطة، يتناول مــا تبقى من فطيرة الخبز الصباحيــة مع كوب لبن، ينطلق مســرعاً نحو الشــلال، يلتقي بأصدقائه الصغار، وهم يرددون يا الله بشــمس يا الله بشمس، يبــدأون بنزع ملابســهم قبل الوصول. يصلون لحافة المســبح، يقفزون على رؤوســهم وأرجلهم وبطونهم، يغطسون للأسفل، يرمون قطعة معدنية يتنافسون على إخراجها حتى تكاد أنفاسهم تنقطــع.. يخرجونها.. ينبطحون علــى ظهورهم فوق الصخور الحارقة. الماء ينداح من حافة بركة السباحة، يشعرهم بالحماس وهــوى يترونق بشــكله العذب، يعودون مرة أخرى للســباحة، يصعدون، يلبســون ملابسهم، يتجهون نحو القرية، يصلون إلى

ســاحة الملعب يتقاذفــون الكرة بأيديهم وأرجلهــم وهم يترقبون قدوم عمهم هزاع، هو في العقد الســابع أســمر البشرة قليلاً، ذو شعر كثيف ما بين الأسود والأبيض، يلبس ثوباً طويلاً وله يدان قويتــان، يزعق نحوهــم يــا أولاد المجانين......ألم أحذركم من عدم اللعب هنا، حتى لا تتصلب الأرض يأتي مســرعاً نحوهم، يفــرون متضاحكين. يطمئن بأنهم قد ولــوا، يرجع نحو منزله، يعودون للعب.

الظــل يزيح قرص الشــمس وقد أصبحت علــى قمم الجبال، يتجمعون في حلقة وهم متشابكو الأيدي، يتمرجحون يميناً وشمالاً، يتصببون عرقاً، الأتربة تعلو جباههم، يسدل الليل ستاره، يبدأون بلعبة أخرى. كل واحد منهم يخبئ مجموعة من الأتربة على شكل هرم صغير، والقلق يسري بداخله لتأخره بحلول الليل، يلحظونه، يشــير إليهم بيده، كل واحد منهم يتمســك به للمبيــت عنده، يتجه مسرعاً ملوحاً لهم من بعيد، يحث الخطى، يصل إلى منزله، يجد الباب مواربا، يصعد، يطمئن على كباشــه، يمسح على رؤوسها، ينزلق لفراشه ويغرق في نوم عميق...............

***

الكنز

أشجار خضراء وحشائش تحيط من حوله، يقتاد أغنامه باكراً لتتغذى على العشب، يمر بين الأحجــار وبقايا تلك البيــوت القديمة المتناثرة، التي لم يبق منها سوى صف أو صفين مرتفعين عــن ســطح الأرض، يترك أغنامــه تقتات من الحشــائش، يتأمل البيوت بشكلها القديم وقد عفا عليها الزمن، كانت الأشجار الوارفة الخضراء تقع أســفل الجبــل المطل على القريــة القديمة، لم تكــن تلك الأشــجار كلهــا وارفــة، فبعضها

شـجيرات شوكية وحشائش خضراء في فصل الصيف، أما في فصل الشـتاء فإنها تتحول إلى يابسـة، الأرض بلونها الرمادي تتحـول إلـى خضراء وقت هطـول الأمطار، حيـث تبذر فيها الحبـوب لتنبت وتصبح ثماراً جيدة، يتحدث مع نفسـه، إذاً هنا قريـة قديمـة ولا بد أنها تحتوي على آثـار وكنوز، جلس تحت إحدى الأشـجار، غلبه النعـاس وراح في نوم عميق أتاه أحدهم يخبره بوجود كنز في هذا المكان وما عليه سوى الخروج تحت جنـح الظلام حتى لا يشـعر بـه أحد، وعليـه اصطحاب كبش أبيـض لا يتعدى عمره سـنتين، قـام بتنفيذ ما طلـب منه فاقتاد الكبش بحبل بسهولة وعدم رفع الصوت.

يمشـي فـي الطرقات المتعرجة والضيقـة حتى لا يحس به أحد من السـكان، كان يتناهى إلى سمعه صوت خطواته، وهي تدك الأحجار والأشواك وهي تطقطق، وصل إلى ذلك المكان، وضـع الكبـش جانباً، بعـد أن ربطه بجذع شـجرة، فك أزرار قميصه لليد اليسرى واليمنى، رفع أكمام القميص إلى المرفقين، أمسـك المحفر ضرب به الأرض كانت الأرض خصبة بحيث استطاع نبشـها بسهولة، العرق يتصبب من إبطيه ويتقاطر من جبهته، كان منهك القوى، والأفكار تراوده ماذا سـيحدث؟ وهل

يوجـد كنز في هذا المـكان؟ رفع قامته طقطقـت عظام عموده الفقري، التفت يمينـاً يتفقد رفيقه كان قد اختفى، أصابه الذهول لأنه كان قد أوثقه جيداً، ارتعد من الخوف وسط الظلام الكثيف، ودون إضاءة كان لا يرى شـيئاً سـوى تلك الحشـائش الكثيفة، بجانـب الحفرة التي نبشـها، فجأة ظهر له ثعبان اسـتقام أمامه وكاد يبتلعه، سمع عدة أصوات من حوله تنذره بترك الحفر في هذا المكان، وأن ما يوجد تحت هذه التربة من كنوز لا يستطيع امتلاكهـا، لأن فيه نزاعاً بين جني مسـلم وجنـي يهودي، وقد احتـدم الصراع بينهما فكل طرف يريد امتلاك الكنوز لصالحه وقد توصلا إلى حـل أخير وهو المفاوضات، فإن ثبت أنه ملك للمسـلم فسـتكون الكنوز من نصيبه، وإن ثبت العكس سـتكون ملكاً لليهودي، أما هو إذا أراد الكنز ستملى عليه شروط مجحفة.

ترك المحفر جانباً وأدرك في نفسـه أن عليه الانتظار حتى تكتمل المفاوضات.

صحا من نومه، وحمد الله أنه لم يشترك في المفاوضات.

***

الرائحة

في ذلـك الزقاق الـذي يتجـاوز المتر يمر سكان المنازل الموازية من خلاله، بينما الشارع المجـاور يكتـظ بالمـارة والسـيارات ومحال بيـع الأطعمة وما كان ينقص هذا الشـارع بيع الأسماك، تم فتح محل، حيث يقام طهيه بواسطة فرن يعمل بالغاز. إلا أن رائحة الأسـماك كانت تعلو يوماً وتخف في آخر، كما أن الكباب المقلي بالزيت هـو أيضاً تصعد منـه روائح، أما ذلك الزقـاق فلم تكـن تصعد منه روائـح إلا إذا فتح

بابــه، ومع توالي الأيام تصاعدت منه روائح تكتم الأنفاس، ولم يتعود السكان على ذلك واعتبروه قادماً من الشارع، كان يوجد جدار يغطي ما تبقى مــن فضلات، وعندما ازداد تكاثر الذباب وتصاعدت الرائحة لم يطق السكان ذلك، وأخذوا يتساءلون من أين تأتي هذه الروائح؟

أيعقــل أن تكون من الخــارج؛ تجمعوا في دائرة واحدة وهم يضعون أيديهم على أفواههم وأنوفهم؛ قال أحدهم: لم أعد أطيق الجلــوس فــي داخل منزلــي، فالرائحة نفاذة وتمــر من جوانب الشبابيك، رغم أني أغلقها جيداً، أما زوجتي فإنها تضع البخور في الموقد باستمرار، أما الذباب فنحن لا نعلم من أين يدخل.

قال آخر: أنا أشــتري كل يوم بمئة ريال زهور الفل لإنهاء هذا الشم، ولكنه يزداد رسوخاً.

تجمعت النساء في أحد المنازل واتخذن قراراً فيما بينهن إذا لم يضع أزواجهن حلاً لهذه المشكلة فسوف يهجرن منازلهن أو يغلق بائع السمك دكانه.

قالــت إحداهــن: لا نريد قطــع أرزاق الآخريــن، فأنا أعلم أن هــذا الرجل يقــوم بتنظيف دكانه بالمــاء والصابون حتى لا

تصعـد منه الروائح، كذلك عمـال البلدية يمرون من أمام محله باستمرار ليقوموا بجمع ما تبقى من نفايات.

قالت أخرى: إذاً من أين تأتي هذه الرائحة الكريهة؟

فجـأة بالخارج صاح أحد الرجال: يوجد كيس زبالة أسـود ذو حجـم كبير والذباب متجمع حولـه، فالرائحة تصعد من هذا المكان.

تجمع بقية الرجال حول ذلك الكيس، وبرزت وجوه النسـاء من خلال الشبابيك لمشاهدة ذلك الشيء الغريب.

لـم يجرؤ أحد من الرجال على أن يقتـرب فقد ظن البعض وجود شيء غريب داخل الكيس قال (س):

– لا أحد يفتح هذا الكيس فقد يكون بداخله إنسـان مقتول – لا سمح الله – فهذه الرائحة ليست شيئاً عادياً.

تخيـل أفلام الرعب التي شـاهدها وكيف يقوم القاتل بإخفاء الضحية، انتابه الرعب والقلق وأخذ يتسـاءل من الشخص الذي قام بارتكاب هذه الجريمة البشعة ووضع الكيس في هذا الزقاق.

قال: « سأقوم بإبلاغ الشرطة عن هذه الجريمة، مؤكداً أنها

جثــة ملفوفة داخل هذا الكيس فهــي كبيرة الحجم، لقد افتضحوا علــى يــدي، فأنا خبير بمثل هذه المســائل. إذاً لا بــد من إخبار صاحــب المحل، أولاً لأنهــا تتبع دكانه من الجهــة الخلفية وقد وضــع بجانبه عدة أكياس صغيــرة وعلب كرتون فارغة، حتى لا يرتاب في أمره.

لكنه وضعها أمام مكتشف الجرائم والحقائق الغامضة!».

سرح بأفكاره قليلاً.

قال: «أنا أســتطيع التفريق بين رائحة الســمك وغيرها من الروائح، فهذه ليست للسمك وإنما للبشر».

كانت الشــمس وقت الظهيرة وقد زادت مــن حدتها، وكان المارة على الشــارع يضعون أيديهم على أنوفهم، وكانت بعض النسوة قد خرجن من البيوت، حيث لم يستطعن الجلوس والذباب قد تكاثر فوق ذلك الكيس المغلق بإحكام.

قــال (س): «إذاً ســأذهب وأخبــره بتصاعــد رائحة كريهة مــن الجهة الخلفية لدكانه وأنها تفوح من الســمك وعليه تنظيف المــكان، لأن الذبــاب يتكاثــر، حتى يعتــرف أمامي بــأن تلك

المخلفات وذلك الكيس الأسـود تابع له. وبعدها سأقوم بمراقبته من بعيد حتى إذا قام بحمل الكيس سـأتصل بالشرطة وأستدعي الجيران ليشـهدوا على الواقعة، حتى لا يقوم في منتصف الليل بإخفاء جريمته، فأنا سأصرّ على أن يقوم بحمل تلك القاذورات حالاً كون جميع السكان متأذين من ذلك، وهم لن يصبروا حتى يأتي المسـاء». يا لها من أفكار، دلف إلى محل الأسماك، وتقدم نحو الرجل، زم شفتيه وطأطأ برأسه أمام عينيه فكان ينظر إلى الرجل بريبة.

سأله:

هل الكيس الذي في الزقاق يخصك؟

أجاب الرجل: نعم.

– لماذا تركته هناك ولم تسـلمه لعامل النظافة، إن الروائح الكريهة تتصاعد منه؟

– أنـا علـى اسـتعداد لرفعه ولكـن لم يحـن الوقت؛ ولكن الجميع يتأذون منه، أم أنك وضعت شيئاً ما بداخله.

امتقـع وجه الرجل وتغيرت ملامحه قليلاً. ثم عاود للحديث

عـن اسـتعداده لرفعه حالاً، بينما ازدادت الشـكوك داخل (س) واسـتيقن بأنه اكتشـف جريمة ؛ انشغل صاحب المحل بتنظيف الأرضيــة، لأن الزبائن بــدؤوا يتناقصون والأسـماك قد نفدت وموعـد الغداء قـد مضى وأصبـح الوقت قبـل العصر، حيث الشمس قد خفّت حدّتها.

لم يبــارح (س) مكانه، ظل واقفاً يترقب تلك اللحظات التي سيقود فيها الرجل صاحب المحل إلى حتفه.

اتجه الرجل بعد إغلاق المحل إلى الزقاق.

صعد (س) الدرب الموازي، وجد نفس الكيس الأسود صاح بأعلى صوته بوجود دليل لجريمة.

تجمـع الرجال حوله، برزت النســاء من خلال النوافذ، فتح الكيس بحذر، تصاعدت منه روائح كريهة، اتضح أنها أسـماك متعفنة.

****

أحلام دافئة

ينهكه التعب، يتوقف بالتاكسي جانباً، ينزل منــه، قــال: لا بــد من الاســتراحة هــذه الليلة، مشــاوير رائح جاي.. والمحصــول توفير قيمة البتــرول ومصاريف جيب، وما صرفته للغداء والعشاء.

وأحمــد الله أني لم أصــدم أحداً فأدفع له من جيبــي. إذن الحياة أخذ وعطــاء، واليوم أعتبره أفضل الأيــام، ولن أواصل العمل حتى ســاعة متأخرة كبقية الأيام.

دخل دكانه الذي يطل على الشارع، كان يمتلئ بأثاث قديم: غســالات، ثلاجات، ملابس مهلهلة، وأوانٍ مبعثرة هنا وهناك، سرير حديد تآكل من الصدأ، وفراش إسفنج وبطانية.

تلفزيون مع الريســيفر، حمام في الداخل، أمســك با لسطل البلاســتيكي ملأه بالماء، وضع فيه دفاية كهربائية أوصل رأس الســلك بفيش الكهرباء، بدأ الماء يغلي أخــذ حمّاماً، صعد فوق السرير، غطى جسمه بالبطانية. كان يرتعد من شدة البرد، حيث الطقس فــي الخارج قــارس! وغرفته تلك لا تدخلها الشــمس، ممــا يجعله أكثر برودة. قال لصديقه الذي يســكن معه: أشــعل موقد الفحم حتى يســري الدفء في أجسامنا، أشعل الموقد، فتح صديقــه دبة الغاز، وضع إبريق الشــاي على النــار، أدخل فيه المقادير من الشــاي والســكر، انتظر قليلاً حتى بدأ يغلي صب كوباً من الشــاي، أمســكه، قبضه بين أصابعــه، أحس بالدفء، شعر بسعادة غامرة. أخذ يتأمل التلفاز، كانت عيناه على الشاشة وباله قد ذهب بعيداً نحو زوجته القابعة في قريته البعيدة.

ماذا لوكانت بجانبي لأصبحت أســعد رجل في العالم، ولما اضطــررت للتدفئة بالبطانية، ولما أحسســت بهذه القشــعريرة

التي تسـري في جسدي، مؤكد سـيكون هذا المكان أكثر ترتيباً وأكثـر نظافة، ولكانت ثيابي مكوية بدلاً من هذه الأتربة العالقة بهـا. ولكانت أصنـاف الطعام مطروحة أمامي بـدلاً من تناول هذه الأقراص اليابسـة مـع قطعة الجبن، ومؤكـد أنها لن تقبل العيـش فـي هذا المكان سـوف تجعلنـي أنتقل إلـى منزل آخر نظيف ومرتب وسأستمر بمداعبتها، سأقبل وجنتيها، أمسد على جسدها، وستعيدها لي مراراً.

أخذ نفساً عميقاً أمسك بتليفونه يريد محادثتها، وضعه جانباً، يبدو أنها نامت في هذه السـاعة المتأخرة من الليل، ولكنها تضع الجوال بجانب رأسـها منتظرة اتصالاً صغيراً يظهر على وجه الشاشـة اسـمي، ولكني لا أحب إفزاعها، سـأدعها تنام وتذهب لأحلامهـا وخيالاتهـا. أمـا أنا فيبـدو مصيري في هـذه الغرفة بجانب صديقي هذا المسكين، الذي لا يحب أن يعمل، فكلما وجد عمـلاً تضايق منه، يعتبر جميع الناس أعداءه وأنهم يسـببون له المشـاكل، يعود إلى هذا الدكان مثقلاً بالهموم، ينام وأظل أتحمل مصاريفـه. ولكنه في الأخير يواسـيني في هـذه الغرفة! غطى جميع أجزاء جسمه بالبطانية، وراح في نومٍ عميق لم يفق بعدها.

***

رايات بيض

طويل القامة، عريض المنكبين، شعر منساب، عينان واسعتان سوداوان، جبهة عريضة ينساب الشعر الأسود فوقها، وجه مستدير، بلون رمادي، الشفاه يعلوها شارب مكتنز، يرتكز كلما اعتراه الغضب، يحمل بندقية كلاشنكوف فوق كتفة اليسرى، الشرر يتطاير من عينية، عابس الوجه، يمشي بخطوات متسارعة، أقدامه تضرب الأرض، تتصاعد حول قدميه الأتربة، ينتعل حذاءً جلدياً

مفتــوح الجوانب، فكــرة واحدة تدور في خلــده: أخي قتل أثناء عراك دار بينه وبين جيرانه الفلاحين بســبب هذه النبتة الخبيثة التــي ما فتئت تحصد أرواح النــاس لأطماعهم في بيعها، وهذه الأرض القاحلة التي استنزفت معظم المياه الجوفية.

كان أخــي شــجاعاً عندما قاومهم وحده، لكنهــم غدروا به، كانــوا كثيرين، أنا أعرفهم تمامــاً، إنهم من بيت ردمان، ولا بد من أخذ الثأر من أحدهم.

وصل إلى منزل أخيه، طرق الباب الحديدي بشدة، أسرع أحد أولاد أخيه بفتح الباب، دلف إلى الداخل، كان المنزل من طابق واحد، أربع غرف مبنية من الأحجار والأســمنت، الأبواب من الخشب الصلد، إحدى الغرف كانت أوسع من البقية، خُصصت لاســتقبال الضيوف، جوانبها وحول الحائط مفروشــة بالوسائد الإسفنجية تتوسطها وسائد اليد وفرش إسفنجية أيضاً، في نهاية الغرفة علقت صورة مالــك المنزل، فوق المقبض المثبت على الجدار، بجوارها ســيف قديم. الشبابيك مصنوعة من الألمنيوم، تعلوهــا قمريات ملونة مزخرفــة بعدة أشــكال مربعة بنجمات خماسية بعضها لطيور النورس، قال (ع): «يا مسعد، أنت تعلم

بـــأن أخونا قتل من قبل (آل ردمان)، قد تكالبوا عليه ولم يمتثلوا لشـــرع الدولة بتســـليمهم القاتل، هم منكرون فعلتهم، ووســـاطة الوجهـــاء لم تُجْدِ نفعـــاً، إذا غضضنا الطرف عنهم قد يتطاولون أكثر ويقتلون أحدنا ولا بد من الثأر منهم».

قام مسعد من مجلسه، أخذ سلاحه المعلق على جدار الغرفة، مضيا معاً لإبلاغ جميع بيت مصلح: «من كان في سن الثلاثين عاماً ليحمل سلاحه، ويأتي لمنزل مسعد».

القرية التي تتكون من أسرة ردمان وأسرة مصلح بدأت في الانقسام.

أخـــذت الأســـرتان تدقـــان طبـــول الحرب، لاحت الشـــمس فـــي الأفق منـــذرة بالمغيب، الأهالي قامـــوا بتخزين المحاصيل والأســـلحة، وأحزمة الرصـــاص والذخيرة فـــوق أكتافهم، كان الطرفان المتعاديان يتقابلان مع بعضهما، لم يتبادلا التحايا، ولم يتبـــادلا إطلاق النار، فقد اتفقا علـــى إدارة الحرب خارج القرية حتى لا يتأذى الأطفال والنساء.

أقبل المســـاء بظلامـــه أراحهم من عناء العمـــل في النهار، لأنهم كانوا في شرود، فكل واحد كان يريد شراً للجانب الآخر،

ســرت أخبار الحــرب كما النار في الهشــيم أصبح كل فرد من العائلتين يحمل همّاً.

الأطفــال يحملون هــمَّ فراق آبائهم لهم وعــدم تلبية طلباتهم ولعله يكون الفراق الأخير، النســاء كن أكثر توجساً وخيفةً من حصــول مكروه لقريب أو زوج. كانت الأنســاب مختلطة، كل أسرة لها بنات متزوجات من الطرف الأخر، أسئلة عديدة تدور:

هــل هذه الحرب ســتفضي إلى هجرهــن أو الطلاق، أم أن كل فرد سيتمســك بزوجته مهما كانت الظروف؟! بدت الماشية وكأنها تشعر بأن أموراً تجري، فالخروج لتناول العشب أصبح بأوقــات معينة، الراعــي لا يبارح مكانه، يظــل بجانب أغنامه وأبقــاره حاملا على كتفه ســلاحه الناري، وذلــك الذي يحرث الأرض بالثيران يحمل ســلاحه أيضاً. كانــت القرية تعيش في قلق دائم وفزع، المؤن يتم نقلها إلى المكان المتفق عليه للحرب.

كان (ع) مازال شــارد الذهن يفكر بالخطة التي ســيضعها للقتال، قال في نفسه: «لو اخترت دون سن الأربعين سيشكلون عبئــاً علــيَّ، إذاً ســأخالف القوانين وســأختار من هم في ســن الخامســة والعشرين وما فوق، لأنهم أكثر مراساً وقوة». أخرج

الذخيرة التي كانت مخزنة في منزله، وزعها على الحاضرين.

بدأوا بالخروج الواحد تلو الآخر وسط الظلام الكثيف كل واحد حامل بندقيته بيده وفراشه وبطانيته على ظهره، والذخيرة مربوطة على خصورهم. وبقية أفراد العائلة يحملون الغذاء والماء، وبما أن الحرب لم تدر رحاها بعد، فقد سمح لهم بالذهاب إلى موقع المعركة، مشوا بخطوات بطيئة مشوبة بالحذر، يُسمع تكسير الأحجار تحت أقدامهم، كان (ع) يتقدمهم بثبات وعزيمة حتى لا يتسرب الوهن إلى نفوسهم أو تتسلط عليهم الأفكار والمخاوف. كان أكثرهم خبرة في الحرب، تعلمها من والده عندما كانت تحدث صراعات مع القرى المجاورة، يعرف الموقع الجيد الذي سيطلق منه النار على أعدائه، بدأ بجمع الأحجار وعمل المتاريس وحفر الخنادق الصغيرة، ومن ثم حفر الكهوف الصغيرة ووسعها من أجل المبيت فيها، أصبح الموقع مواجهاً لأسرة بيت ردمان.

كانت النجوم تتلألأ في السماء، وتباشير الشفق يشع بنوره مبدداً الظلام، العرق ينداح من وجناتهم، العيون تترقب بحذر وخوف من انطلاق رصاصة طائشة تردي أحدهم.

فــي الجهة المقابلــة «آل ردمان» أعدّوا خنــادق ومتاريس للاختباء، نصفهم كانوا مستيقظين، آخرون نائمين..

لاحت الشمس في الأفق بأشعتها البلورية.

المقاتلون يخرجون الواحد تلو الآخر من الجانبين، الأسلحة موضوعة فوق أكتافهم، طالما أن ساعة الصفر لم تحن فلا بأس من خروج الطرفين والعودة لمنازلهم.

الحيــاة تــدب فــي الأرجــاء، همســات تســمع بين النســاء والأطفال بأن الحرب بين الأســرتين قائمة، وســاعة الصفر تم تحديدها، خوف، قلق دائم، أسـئلة تتكرر هل سـتطول الحرب، أم يقتــل واحــد من بيت ردمان. وتنتهي الحــرب؟ أم يقتل واحد من أســرة مصلح وتتعقد المســألة وتطول الحرب؟ وكم سيكون عدد الجرحى؟

المؤن تجمع للمواقع، ذخيرة، أسـلحة خفيفة ومتنوعة، خبز ناشف، ماء وخضروات، سكر، أرز.

أذنت الشمس بالمغيب، الماشية تعود إلى الحظائر، السكان يعودون لمنازلهم، المزارع أصبحت شــبه خالية، الكل يتوجس خيفة من انطلاق شرارة الحرب.

كان قد وزع أصدقاءه على جميع الاتجاهات، أيديهم ممسكة بالبنادق، أصابع السـبابة ممسـكة بالزناد مترقبين انطلاق أول طلقة نارية من بيت ردمان.

لم يكن (ع) يحب الدخول في المعركة على الرغم مما يغلي فــي داخله من نار الحقد والانتقـام والثأر لأخيه، وأكثر ما يحزّ في داخله أن بيت ردمان لم يمتثلوا للعدالة، كان (ع) على اقتناع بأن يأخذ الحق مجراه.

جثم الليل على الأرجاء، طنين الحشرات الصغيرة تتعالى، كأنما أحست بوجود أناس غرباء على المكان، على غير العادة، عـواء الكلاب يتـردد بين الجبـال، حالة ترقب مـن الكائنات، طلقات نارية تقطع حاجز الصمت، ترتطم فوق الصخور وعلى جدران الكهوف.

كان (ع) في أعماق نفســه غيـر راضٍ عن الوضع، فهو لا يريد العداء مع شخص بحدّ ذاته أو إطلاق رصاصة من بندقيته لقتــل إنســان وإن كان من الجهة المقابلة، طلقاتــه النارية بطيئة ومتفرقــة في الهـواء، أما الخطط التي كان يمـدّ بها زملاءه فقد كانت تأتي في الصميم، مضت أربعة أيام، وإطلاق النار ساري

المفعـول، لم يُصب أحــد، رأى (ع) أن الذخيرة بدأت تنفد، فيما بيت ردمان شــوكتهم تقوى، ذخائرهم بــدت كبيرة الحجم يوجد أحد ما يمولهم، ونحن لدينا أقرباء في الجيش، لا بد من الاستعانة بهم فهم ليسوا طرفاً في الحرب، لا بد أن يمدونا بالسلاح.

المــؤن الغذائيــة بــدأت تنفــد مــن كلا الطرفين، أشــرقت الشــمس ساطعة للتهدئة، أتت النساء يحملن رايات بيض لإمداد المحاربين بالغذاء والدواء، وكذلك أخذ الجرحى لإسعافهم.

طلــب (ع) مــن زوجته التواصــل مع زوج ابنتهــا ليمدهم بتســع قطع من العيار الثقيل مع الذخيرة كسلف، وبعد أن تضع الحرب أوزارها ســيتم إعادتها. انطلقت زوجة (ع) تجاه منزل ابنتها لأخذ السلاح، ولم يستطع الزوج الهرب من المأزق حتى لا يُعــد متخــاذلاً تجاه والد زوجته انطلق بســيارته تجاه المكان حاملاً رايةً بيضاء، توقفت الســيارة تحت الســفح، نقلت المؤن والذخيرة، لم يُطلق النار عليه كونه من أنســباء أســرة مصلح، وهــو ليس طرفاً في الحــرب، يحق له مســاعدتهم ولا يحق له الاشتراك في القتال.

خُصص يوم لنقــل الجرحى من الطرفيــن والتزود بالمؤن

والذخيرة، والسماح للأطفال والنساء بزيارة الأقارب والأزواج، لاح شـعاع الشـمس في الأفق منذراً بالمغيب، رياح باردة تنذر بقدوم فصل الشتاء محملة بأتربة مغبرة كلون الأرض، الوجوه مشرئبة عليها علامات التساؤل، القلق والتوتر والفزع بادٍ على الوجوه. المساء يقترب والفضاء تضيئه الأعيرة النارية.

وزع (ع) الأسـلحة الناريـة على كل من حوله، رسـم خطة جديـدة مباغتـة حتى ينهي هذه الحرب بمقتـل فرد واحد من بيت ردمان، فتكون المعادلة قتيلاً من «بيت ردمان»، وأخاه الذي قتل.

الخـوف ينتاب الطرف الآخر باحتـدام المعركة، والمتفوق فيها «آل مصلح»، ازداد عدد الجرحى من أسرة ردمان، أصيب أحدهم بطلقة نارية في رأسـه أردته قتيلاً، تحمس زملاؤه للرد، احتدمـت المعركة أكثر وأصبحت أكثر ضراوة، لاح الفجر في الأفـق مزيحاً السـواد الأعظم، كان الطرفان قـد انهارا من قلة النوم وشـدة المعارك ولهيبها، أعلـن «آل ردمان» مقتل واحد منهـم ليصبح الفريقان متسـاويين في القتلـى، توقفت المعركة لتنتهي بالصلح.

* * *

عـــراك

يفتح الحارس أبواب الوزارة تدخلُ هي قبل شـــروع الموظفين لمكاتبهم بقامتهـــا الصغيرة، وقدميهـــا الحافيتيـــن، شـــعر أجعـــد مبعثـــر لـــم يعــرف أن مرّ المشـــط بين خصلاتـــه، ملابس باليـــة متســـخة، وجـــه طفولـــي جميل فيـــه عدة خدوش بســـبب ســـنوات معاناته في الشـــوارع ولفح الشـــمس، والبرد القارس جعل من الطفلة ذي التاســـعة ربيعاً أكبر من هذه الســـن، تصعد درجات السلم، تطل على بعض المكاتب تجدها موصده عدا مكتب رئيس قســـم الحســـابات فهو

مفتوح تبحث عنه كونه يعطيها نقوداً، وبما أنه يتأخر عن الدوام تبدأ بالعبث بأجهـزة الكمبيوتر، تضغط على مكابس الكهرباء، تهمـس أزرار الأجهـزة من الكيبورد إلى الشاشـة دون معرفة بتشغيلها.

تتجـه لجهاز آخر، يأتي أحد موظفـي المكتب وهي تعبث، ينصحهـا بعدم اللمس، لا تعيره اهتمامـاً، أصابعها تهمس بقوة من كيبورد إلى آخر يراقبها بتمعن، يزم شفتيه يعتريه الغضب، يزعـق عليها، تظل منهمكـة بعملها، يغتاظ أكثر، «يا بنت» ألا تفهميـن اخرجي من هنا فرئيس الحسـابات لم يـأت. تنتقل إلى مـكان آخر محركة أصابعها، يفقد أعصابه، يمسـك بها يرميها خارجاً تقاومه بشراسـة غير آبهة بغضبه، يمسك بشعرها بقوة، تظل متسـمرة في مكانها، دموعها سـاكنة فـي عينيها، تحاول الدخول مرة أخرى، يمسك بكتفها، يرميها خارج المبنى. تمشي مـن أمامه غير آبهة، تنتقل لسـوق السـمك يزدحم الناس حول الأسـماك والمخابز، تتمشى بينهم بكل ثقة، يناولها أحدهم نقوداً تأخذ منه، تجد طفلاً في نفس سـنها يبتاع كتباً صغيرة تتحرش به، يحاول مجابهتها، تمسـك برقبته، توسـعه ضرباً، يفك أحد المـارة العراك بينهمـا، تنداح بين الجموع وتعيـد الكرة لتلتقي برئيس الحسابات ليغدق عليها بالنقود.

أعاصير

يمشـــي ببطء، يلتفت يميناً ويساراً، يصطدم بالمــارة، ذهول عقلــي، الكلية تكتــظ بالطلاب والطالبــات، ولأول مــرة يقابل هــذا العدد من الجموع وبالأخص كثرة الطالبات، قال لنفســه: «يبدو أن جميع طالبات المدارس تجمعن هنا». لم يغير من وضعية الدفتر الجامعي الذي يمسك به فــي يده اليســرى، ولا تــزال نظراته تحدق بمــن حولــه. رأى طلبة متجمعين حــول لوحة زجاجية، انداح بينهم. وجــد أنهم يطّلعون على

جداول المحاضرات، ألقى نظرة سريعة على جدول القسم الذي اختــاره، كانت أولى المحاضــرات للعلامة ابن خلدون صاحب كتــاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر ومــن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) وأول من أسس علم الاجتماع.

بحــث عن القاعــة، كانت رقــم 17 دخلهــا، ربض، وضع الدفتــر أمامه، جلس البقية على الكراســي، الطلاب في ناحية، والطالبــات في أخرى. دخل الدكتور ألقى التحية عرّفهم بنفســه ونبــذة مختصــرة عن ســيرته الذاتية وســيرة ابن خلــدون، بدأ يشرح النظرية بسلاسة، استغرق وقت المحاضرة حوالي ساعة ونصــف، انتهى موعدها، خرج الجميع من القاعة. تناول طعام الإفطار، بدأ يتعرف إلى البعض بصورة سطحية، انتقلوا لقاعة أخرى استمعوا للمحاضرات حتى شارفت الشمس على المغيب عاد لمنزله.

في اليوم التالي استيقظ باكراً، اغتسل، لبس أفضل ما عنده، انطلق بنشاط، دلف إلى الكلية ممسكاً بدفتره، يتأمل ورقة بيضاء فيهــا جدول المحاضرات، بدأ يعتاد على التزاحم، يلقي نظرات خفيفــة هنا وهناك، يتنســم هواءً عليــلاً بروائح زكية، أضاعت

رشــة العطر التي نفحها علــى إبطيه، كان يشــتم الروائح كلما خطى نحو الداخل. اشــتم رائحة أقوى وأفضل، مشــى وراءها وصل لأقرب شــجرة ظن أنه من أوراقها، فاحت رائحة أخرى تتبعهــا، حتى وصــل إلى القاعة، ربض على كرســي ما زالت عالقة.

اســتمع للمحاضرات، تناول طعام الغداء مع زملائه، كانت الصداقــة تعمقت فيمــا بينهم، كما اكتســبوا علاقــات مع طلبة لمستويات أعلى.

وعرفوا شخصية كل دكتور ما الذي يحبه وما الذي يكرهه، وعن أساليبه في المحاضرات والامتحانات.

أصبــح كل طالــب فــي الكلية يســعى وراء هــدف محدد، العام الدراســي شــارف على الانتهاء، حيث هو وزملاؤه كانوا مســتعدين لأداء الامتحــان، كانوا يجتمعون فــي منزل أحدهم، ويســتذكرون المحاضــرات، كان نصــف الوقــت يمضــي في الحديــث عــن الدكاترة، قال أحدهم: دكتور علــم النفس معقد لا يريد أحداً بأن يتحدث في المحاضرة ولا يريد أحداً يناقشــه في أي موضوع.

أجابه آخر: «ولكن محاضراته شيقة وتناسبني أفكاره وحديثه حول علم النفس».

قال هو: «جميع المواد كوم، والفلسفة كوم آخر، لم أستطع استيعابها وهي بحاجة إلى حفظ!».

فقال ثانٍ: «لقد بدأت أستوعب جميع المواد، والذي لم أستطع استيعابه هو زميلاتنا، لم تتحدث واحدة منهن معنا، ولم نحاول الحديث معهن، لقد خلقن فجوة بيننا وبينهن، حتى المحاضرات التي أكون بحاجة إليها، لم أتجرأ على استعارتها منهن».

قال آخر: «كلهن متشابهات بهذا الملبس الأسود والبرقع، ولا يوجد بينهن كاشفات سوى أربع، وقد لفتت انتباهي إحداهن، ترك الجميع كتبهم جانباً من هي «أنت بتذاكر من ورانا»، أنت خطير، يزم شفتيه وقد أحس بالحرج، أنا أقصد أنها جميلة، ومهذبة».

قال آخر: «أليست ذات الحجاب الأبيض، والوجه ناصع البياض، والعيون الزرق؟ نعم.. إنها هي».

قال آخر: «انتبهوا لدروسكم ودعكم من هذه الأحاديث، فالامتحانات على الأبواب».

وبعد أدائهم الامتحانات، انقضت العطلة سـريعاً، وبدأ عام دراسي جديد، وتثاقلت عليهم مواد جديدة للمستوى الرابع.

كان أغلـب الطلبـة والطالبات قد اندمجوا مـن حيث تبادل المحاضـرات فيما بينهم والاشـتراك في عمـل البحوث. كانت علاقات سـطحية، أمـا هو فقد ظل يتابع الفتـاة التي أعجب بها مـن طرف واحد. يتتبـع خطواتها، يلمح لهـا بنظرات إعجاب وابتسامات، يحاول التقرب منها بأخذ المحاضرات التي تفوته، فكلما ابتسـمت له أحس بعاطفة شـديدة نحوها، فقد تغلغل الحب في كيانه أصبـح كالرياح الهوجاء والأعاصيـر، كان يتذكرها دوماً هي لم تكن تبادله أي مشاعر سوى أنه زميل دراسة حاول التقـرب منها، تحدث عـن المواد الدراسـية والبحوث العلمية، تحادثه بهدوء وهي ممسكة بكتبها فوق صدرها.

قال لها: أتحبين أن نتمشى سوياً في رواق الكلية.

قالـت له: لديّ موعـد مع الزميلات، شـعر بالخجل أمامها احمرت خدوده واصطدامه بالموقف، رغم ازدياد احترامه لها، أحـس بأنه مرفوض العواطف وأن مكانه ليس في قلبها.. ازداد إصراره على الدخول إلى كيانها.

حــاول توســيط صديقاتهــا، أتاه الرفـض، تابــع خطواتها تحركاتهــا داخل الأروقة، اتجه نحو منزلها تحرك وراءها كلما تتبعها يزداد إعجابه بها.

أصبحــت الهواء الذي يتنفســه، الأكل الذي يأكله، لا تفارق تفكيره.

وعندما لم يعد يحتمل تقدم إلى خطبتها، فقوبل بالرفض، ولم تعــره أي انتباه، اعتصر تفكيره وأصــرّ على أن ينال جانباً من عواطفها، أهمل دروســه، محاضراته، اعتزل جميع أصدقائه، تشتتت أفكاره.

تخرجــت هي فــي الكلية، اختفت عن أنظــاره، راح يبحث عنها دون إرادة.

***

الحاسة السادسة

تقبـع فــي غرفتها تلـك التي تقع فــي ربوة عاليــة على سـفح الجبـل والمطلــة على جميع بيــوت القرية المتناثــرة، هي لا تريــد أن يقوم أحد بالبنـــاء بجوار غرفتها أو أسـفل منها تقوم بتحذيره بأن هذه الأماكن مسكونة، وهي طريق لأناس لا نسـتطيع رؤيتهم، لأن الموقع قد شـيد في زمن الأجداد وهو الآن مملوك لهؤلاء الناس قامت بغرس الأشـجار بجوار غرفتها واعتنت بسـقيها حتى صارت خضراء وارفة، غرست

أشــجار التين المشوك حتى أصبح يثمر، كذلك زرعت الأزهار ذات الروائــح الزكية فهــي تقدمها لبعض النســاء اللاتي يقمن بزيارتها فهن يعتبرنها تمتلك الحاســة السادسة تستطيع التعرف إلى أية امرأة دون النطق باســمها وإنما تقول لها من أســرة كذا وأبوك اســمه كذا ويكون حدسها صحيحاً فهي تنظر إلى ملامح الشــخص ولون البشــرة والعيون وطول الجســم وقصره بحكم احتكاكها بأفراد القرية، قبل صعودها لهذا المكان تركت شظف العيش فــي المدينة نتيجة تعامل زوجهــا معها بفظاظة، أرادت الاســتقلال بذاتها والعيش بحريــة في غرفتها تلك، فهي تتحدث مع نفســها الليــل بطوله وحين يهجع ســكان القرية في منازلهم يُســمع صوتها، وهي تعود للماضي تتحدث عن الناس لا تنطق بأســمائهم بل بأفعالهم وكيف استطاعت التخلص منهم والحلول التي قامت بها ثم تعود لجيرانها المخلصين، وما دار من حوار بينها وبينهم، تظل على تلك الحالة حتى منتصف الليل، فالأهالي لا يُعيــرون كلامها اهتماماً فقد اعتــادوا على ذلك، فهي الأنس لهــم والطمأنينــة لمن أراد الخــروج للتنزه ليــلاً، وحين يحاول بعضهــم الدخول معها في حوار تبتعــد عن الحديث وتدخله في حوار آخر لا تســمح لأحــد بالصعود إليها ليــلاً، أما في النهار

فغرفتها تلك المليئة بالأخشاب والعيدان اليابسة مع سريرين حديديين، وفرش مهلهلة وموقد صغيرة يعمل بالكيروسين وقناني بلاستيكية فارغة وحين تستقبل أي شخص يصعد إليها تقدم له ما عندها من الطعام، وإذا كان لديها حلويات تقدمها، تقدم التين المشوك بعد إزالة الأشواك العالقة منه، تتحدث بهدوء تناقش مشكلاتها القديمة ثم تخرج عن الموضوع وتتحدث عن جيرانها المخفيين، لقد آذوني وفي هذا اليوم كانت لديّ بعض النقود أخفوها عني.. قمت بعجن الخبز وعبثوا به. أعود لإعداده مرة أخرى، ولكنهم سوف يعيدونه مع النقود، هم دائماً يحبون المزاح معي، تناولك قرص الخبز المقلي بالزيت تحذرك من شيء ما وإذا حاولت سؤالها مرة أخرى تبتعد عن الموضوع وتدخل في حوار آخر، تناولك الحلوى وتخبرك من أين حصلت عليها، تتحدث عن الوحوش الذين يمرون بجوار منزلها وبأنها سمعت أحدهم وهو يمر في السائلة البعيدة عن القرية كان واقفاً هناك في الظلام وكانت عيناه تلمعان، كان سريع الخطى تتقافز الأحجار من تحت أقدامه، إذا حاول شخص تطويل الحديث معها تدخل في نفسه الرعب حتى ينصرف.

***

السبت 5 فبراير 2012

كعادتي أصحو الساعة السابعة والنصف أمسح وجهي بالماء البارد، وأدعك أسناني بالفرشاة والمعجون، وأنشف وجهي، أضع كريماً أبيض عليه، ثم أرش قطرات من الزيت على شعري رغم وجود القليل منه على فروة الرأس وكثافته على الجوانب، لبست القميص والبنطال خرجت من المنزل دون تناول طعام الإفطار، كانت معدتي ممتلئة، توقفت قليلاً في الشارع، صعدت فوق الباص، أقلني لمكان

قريــب من عملي، مشــيت بضع خطوات، بدأت معدتي تشــعر بالجوع، تناولت سندوتش بيض مقلي، طلبت كوب عصير، كان طلبــي غريباً على النادل عصير بالتفاح الأخضر مع الأناناس، حيث ســمعت بأنه مفيد ويجعل يومك نشيطاً، كان العصار يتلكأ كون التفاح الأخضر غالي الثمن وسعر كوب العصير محدود.

ســاورتني الشــكوك بأنه ســيقوم بعصر تفاح إما مخزن أو ضامــر، اتجهــت نظراتي نحــوه، غيرت طلبــي، قلت عصير أناناس مع الجزر، أبدى اســتعداده ســريعاً، قــام بخلطه قدّمه، تناولته بشــهية كوني قد اطمأننت إلى أنه طري وطبيعي، كوني أحب أكل وشرب كل ما هو طبيعي، دفعت الحساب مئتا ريال، واتجهــت نحو مقر عملي صادفت إحدى المكتبات، نظرت إلى عناوين الصحف المحلية، كانت متشابهة جميعها في العناوين، وســيلة تثقيف كما نســميه ببلاش والخاســر صاحــب المكتبة، الــذي كان يزدرد ريقه إلا أنه لم يســتطع منعهــم كون البعض يشتري أشــياء أخرى. تصفحت عناوين جميع الصحف، كانت نفــس الأخبار، إلا أن بعضهــا يطول بالخبر والآخر ينقص منه أحد العناوين: سرقة خمسة وثلاثين مليون ريال، أخرى: ثمانية وعشــرون مليوناً، اشــتريت إحدى الصحف العربية، وضعتها

بيـدي، اتجهت نحو عملي، أخذت شـيكاً، ذهبت بـه إلى البنك لتوريده لحساب البريد، كان البنك قد فتح أبوابه، دلفت للداخل، ناولت الشيك إلى الموظف تلكأ أمامي قال: تريده للبريد لاداعي لهذا التعب!

لم أشـأ مناقشـته، تقدم نحو الشـباك، شـخص آخـر ناوله مجموعة من الشـيكات أستسـلم الموظف للأمر الواقع، تنحيت جانبـاً قمـت بتصفح عناوين الجريدة وقف، أحد جنود حراسـة البنـك بجانب رأسـي يتطلع للعناوين، كنـت صامتاً، وقف أحد الزبائن بجانبي سـحب منـي الصحيفـة دون إذن، نظرت إليه بصمت، اطلع على عناوين الصفحة الأولى أعادها.

مضت سـاعة من الوقـت، ناولني موظف البنك الإشـعار للبريد، كنت في انتظار زميل آخر لديه شيك، خرجت من البنك، دخلـت إحدى البوفيهات طلبت شـاياً أحمـر، لا تزال الصحيفة فـي يدي، قرأ أحد الرواد عنوان الهيئة العامة لمكافحة الفسـاد، قال: أي فسـاد هذا الذي يقولون عنه ألا تعلم أننا في السبعينيات كنا سـنقرض بعض الدول، كان البنـك لديه عملة صعبة والآن أصبحنـا نقترض، رمقته بصمـت، رن جرس التليفون من قبل

مسـؤول إدخال البيانات يريد عودتي للمكتب، اسـتقللت باصاً يتسـع لثمانية ركاب مع السائق وبحسب العرف لدى السائقين، حيـث هو صنع لسـتة أشـخاص مع السـائق، ومـا إن وصلت حتى هاتفني الشـخص الآخر عدت أدراجي مستقلاً مواصلات لنلتقي في نقطة معينة، التقينا ناولته الإشعارات التي لديَّ، أراد اصطحابي معه، قلت: ولكن لديَّ عمل هام ويجب قضاؤه!

قال: ناولني مئة ريال أجور مواصلات، أخرجت من جيبي فئة ألف واضطررت لشـراء شـوكولاتة لأحصل على صرف ناولتـه المئة وتقاسـمنا الحلوى ثم افترقنـا، عرجت إلى وزارة الثقافـة للبحث عن مجموعتي القصصية، لمعرفة هل تم طبعها أم لا؟ أخبرنــي المختـص بعـدم وجود ميزانيـة لطباعة الكتب وعلــيّ الانتظـار حتى يتم اعتماد ميزانيـة لذلك، ذهبت لمجمع المقاهي، كانت مكتظة بالمرتادين، وبالصدفة التقيت بصديقين، ربضت بجانبهما، كان أحدهما يشرب شاياً أحمر والآخر أمامه كـوب آخر بالحليب، لم يشـربه قدمه لي، لم تكـن لديّ الرغبة لتناول الشاي. قال: أريد قارورة ماء، كانت أمامه مياه معدنية، قلت له:

وهـذه، كان حديثه متلعثماً وعيونه محمرة ورائحة فمه تدل

على أنه شــرب خمرة، أمســكت القارورة التي أمامه قلت: هل أشرب؟

قال: ما نوعها؟

قلت: فودكا روسي.

قال: صحيح.

كان يعلــم بأني لا أســتطيع فعل ذلك، أعدتهــا لمكانها، هو يعانــي الاكتئاب، فقــد أصبح مهملاً لنفســه، حيث طلق زوجته السابقة وتزوج بأخرى تركته هي أيضاً لمؤجري البيوت الذين لم يقبل لديهم كونه يتعاطى الخمور، قام صديقه،

قال: لديّ موعد مع أحد الأصدقاء.

قال: الآ خر سآتي معك!

ظللــت أترقب ردّ صديقي بفتح الحســاب البريــدي، ولكنه هاتفني بأن البيانات قد أرســلت عدة مرات من قبل إدارتنا وأن مســؤول فتح البيانات في البريد قد نســي فتح الحساب وتليفونه الســيار مغلق وما علينا سوى الانتظار للفترة المسائية حتى يتم فتح الحسابات الجارية بقيت في مكاني حتى تم فتح حسابي.

الشموخ

شـــامخ برأســـه نحو الســـماء بطوله الفارع نحــو أربعة أمتار وقطره نحو المتر رابض في أعلى القمة والمطلــة على القرى التي تقع على الســـهل، مضى عليـــه أجيال متعاقبـــة، لا يزال يشمخ، سمي الجبل باسمه حجر الصريح يخشاه ســـكان القرى لكبـــر حجمه ظناً منهم أنه ســـيقع على بيوتهم..

كانـــت له رهبة فـــي قلوبهم، لـــم يتجرأ أحد منهم، على اقتلاعه مـــن مكانه لكبر حجمه وقد

يتدحــرج ويدمر كل من يقـف أمامه، كانوا يرونه حامياً للجبل، شيء مخفي في نفوسهم إذا ما تم اقتلاعه، تهب الرياح القوية من قمة الجبل، هو لا يتزحزح من مكانه سيقع عليهم، ليس في تلك الآونة ولكن بالتصحــر، وانجراف الأحجار من جوانبه، ولكنه يؤكد لهم بأنه صامد وشــامخ كالجبل نفسه، إنه يعي حب الناس لــه وتعلقهم به. كل من أراد أن يتنفــس صعد إليه وكل من لديه مشــكلة يقوم بمحاكاته، كان يشعر بهم وبمشــاكلهم وأفراحهم، ولكنــه لا يســتطيع النطــق، في موســم الأمطــار عندما تخف بالنزول يتجمع الأهالي، يأخذون معهم عجلاً سميناً، يتقربون به إلى الله. يصعدون به لجوار الحجر، يصلون صلاة الاستسقاء، يذبحون عجلهم بجانبه وهم يشــعرون بســعادة غامرة. البعض يــرى أنه خطر قادم يهدد منازلهــم، آخرون يرونه ملكاً للجميع ولا يحق لأي شــخص اقتلاعه، تصعد امرأة نحوه حاملة معها فؤوســاً وبعض الرجال، يبدؤون بتكســير جــزء منه، الأحجار تنزلق نحو الأســفل تميل بعيداً عن البيوت مما يؤكد لهم بأنه لا يريد الشــر بهم، لم يســتطيعوا هدمه بالكامل فكلما أبعدوا جزءاً منه ازداد شموخاً..

***

العجوز والشاطئ

يجمع أشياءه المتراكمة فوق بعضها مخدات وبطانيات مهلهلة، يتربع فوق كوم ترابي بفرش إسفنج قديم، يضع فوق رأسه قبعة من صوف، يلبس فانيلة نصف كم وبنطال نوم يقي جسمه حرارة الشمس. أشياؤه القديمة متراكمة، فوق بعضها، يرتب مقعده، يضع المخدة عند الرأس، يجب ألا تكون هنا البطانية يمدها طولياً على السرير المتربع فوق الكوم الترابي يرتب عطفات الجوانب، يحس بسعادة غامرة ينظر

للغربان وهي تزعق، تحوم حوله لمسافة قصيرة، البحر يبعد عنه سبعة أمتار، قوارب الصيد تحيط به، يعلق فوق صدره راديو بخيط أسود، قال: هذا أنيسي ورفيقي الوحيد، أسمع منه جميع المحطات الإذاعية العالمية أستطيع سماع الإذاعات الأجنبية الإنجليزية، الألمانية، الفرنسية.. أستطيع فهم هذه اللغات، ولكن ليس كتابياً فعندما يتحدثون أستطيع فهمهم. المسألة فهم اللغة غصباً. البحر يترقرق بهدوئه، القوارب متراصة بجانب بعضها ترتطم فوق المياه مربوطة بالمرساة فوق التربة، الأمواج الهادئة تندفع ببطء نحو الساحل تستقبل أشعة الشمس غير عابئة بحرارتها ما زالت المياه الباردة تأتي من الأعماق، قوارب تقل أناساً بعيداً للتمتع بأمواج البحر ومشاهدة السفن العملاقة، وسط البحرنحوالساحل، طيور تحلّق في الأجواء تترقب سمكاً يطل فوق سطح الماء لتصطادها، الغربان ما زالت تحوم حول الساحل ليجود بما لديه من فُتات البحر والمرتادين، أعمال البناء تشق الجبل المطل على البحر لإنشاء فندق جديد لجذب السياح ولكسب المزيد من المال، فمالكه لديه أموال وعقارات في جميع أنحاء العالم لا تهمه حجم الخسائر في هذا المكان. قال العجوز: أنا أعلم بتحركات الجميع، القوارب التي تأخذ النساء، يضعون

الأطفال على الشاطئ، آخرون يشربون حتى ساعة متأخرة من الليل، لا يجدون من يقلهم، وإذا وجدوا سـيارة، تسـحب النقود التـي لديهم وتصفى جيوبهم مقابل نقلهم للوجهة التي يريدونها، أما الذين لا يملكون نقوداً فإنهم ينامون على الشاطئ وقد تسلب كرامتهم وهم نائمـون، هؤلاء الذين أمامي يؤذونني لا يريدون جلوسـي في هذا المكان، ولكن الحياة جميلة وممتعة، وأنا أحس بالمتعـة، رزقي يأتيني تفاؤلي مسـتمر، أصبح عمري تسـعين عاماً وأحد عشـر شـهراً، لقـد مرَّ على هذا المكان الاسـتعمار والحزب، ومازالت الوحدة، يقوم من مكانه يتمشـى بين الرمال بأقدامه الحافية، يحس بالغبطة.

ينظـر للبحـر، يعـود بخيالـه للماضـي، يتأمـل الحاضر والمستقبل.

***

الفهرس

– رجل في الظلام 5
– الموعد 11
– الاعتذار 17
– مكان مجهول 23
– شاطئ النملة 29
– الميكانيكي.. 33
– الشهيد.. 39

– البراءة 43

– الكنز 47

– الرائحة 51

– أحلام دافئة.. 57

– رايات بيض.. 61

– عـــراك.. 71

– أعاصير 73

– الحاسة السادسة 79

– السبت 5 فبراير 2012 83

– الشموخ.. 89

– العجوز والشاطئ 91

121
كتاب
الرافد
مُقارَعَةُ المُستَحيلِ
دراسات في ترجمة الشعر
2016
122
كتاب
الرافد
سعيد محمد الحمادي
رَايَاتٌ بِيضٌ
العدد 122
يوزع مجاناً مع مجلة الرافد
يوليو 2016